تفسير سورةُ الحج
من آية (1) إلى آية (4)
اللقاء الأول

مقدمات السورة

أسماء السورة: سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسورةِ (الحَجِّ).

سُمِّيَت سورةَ الحَجِّ؛ لاشتِمالِها على مناسكِ الحَجِّ، وتَعظيمِ الشَّعائِرِ، وتأذينِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ للنَّاسِ بالحَجِّ، وقد نزلَتْ قبلَ أن يُفْرضَ الحجُّ على المسلمينَ بالاتِّفاقِ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروز ابادي (323/1)، ((تفسير ابن عاشور)) (179/17).

فعن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: ((في سُورةِ الحَجِّ سَجدتانِ)).

وعن عبدِ الله بنِ ثعلبةَ: (أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ رضي اللَّه عنه صلَّى بهم بالجابيةِ، فقرأ سورةَ الحجِّ، فسجَد فيها سَجْدتينِ).

فضائل السورة وخصائصها:

فُضِّلَت هذه السُّورةُ على سائِرِ السُّوَرِ بسَجدَتينِ.

بيان المكي والمدني:

اختلف العُلَماءُ في هذه السُّورةِ على أقوال:

الأوَّل: أنَّها مَدَنيَّةٌ.

الثاني: أنَّها مكِّيَّةٌ.

الثَّالث: أنَّها مختلِطةٌ.

فقد اشتملت على آياتٍ مدنيةٍ، وأخرى مكيّةٍ. ويبلغ عدد آياتها ثمانيةً وسبعين آيةً.

مقاصد السورة:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ سُورةِ الحَجِّ: بَيانُ التَّوحيدِ، وإقامةُ الأدلةِ عليه، وإثباتُ البَعثِ. ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي.

موضوعات السورة:

مِن أهَمِّ الموضوعاتِ التي اشتَمَلت عليها السُّورةُ:

1- افتُتِحَت السُّورةُ بالأمرِ بتقوى اللهِ، والحَديثِ عن أهوالِ القيامةِ، وأحوالِ النَّاسِ فيه.

2- بيانُ الأدِلَّةِ على أنَّ البَعثَ حَقٌّ.

3- ذِكرُ جِدالِ المشرِكينَ، وعِبادةِ المنافِقينَ.

4- بَيانُ حُكمِ اللهِ بين العِبادِ، والفَصلِ بينهم، وأنَّ كُلَّ شَيءٍ في الكَونِ يَسجُدُ لله، وأنَّ كَثيرًا مِنَ النَّاسِ حَقَّ عليه العَذابُ.

5- عَقْدُ مُقارَنةٍ بين خَصمَينِ اختَصَموا في رَبِّهم مِنَ المؤمِنينَ والكافِرينَ، مع بيانِ عاقِبةِ كُلٍّ منهما.

6- الحَديثُ عن فريضةِ الحَجِّ وما جَعَل اللهُ فيه من المنافِعِ، وصَدِّ المشرِكينَ عن المسجدِ الحَرامِ.

7- التَّحذيرُ مِنَ الشِّركِ.

8- الإذْنُ للمُسلِمينَ بالقِتالِ، وضَمانُ النَّصرِ والتَّمكينِ في الأرضِ لهم.

9- تَسليةُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم عمَّا أصابه مِن تكذيبٍ.

10- عَرضُ نماذِجَ مِن تكذيبِ المكَذِّبينَ مِن قَبلُ، ومِن مَصارِعِ المكَذِّبينَ ومَشاهِدِ القُرى المدَمَّرةِ على الظَّالِمينَ.

11- عَرضُ طَرَفٍ مِن كَيدِ الشَّيطانِ للرُّسُلِ والنبيِّينَ في دَعوتِهم، وتثبيتِ اللهِ لِدَعوتِه، وإحكامِه لآياتِه.

12- التَّذكيرُ بألوانٍ مِن نِعَمِ اللهِ تعالى على الخَلقِ، وأنَّ الله اصطفى خَلْقًا مِنَ الملائِكةِ جعَلَهم رُسُلًا إلى النَّاسِ.

13- تَوجيهُ بَعضِ الإرشاداتِ إلى المؤمِنينَ بعِبادتِه سُبحانَه، وفِعلِ الخَيراتِ، والجِهادِ، وإقامةِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ، والاعتِصامِ باللهِ.

تناسب سورة الحج مع السورة التي قبلها (سورة الأنبياء):

قال البقاعي: لما ختمت التي قبلها بالترهيب من الفزع الأكبر، وطي السماء وإتيان ما يوعدون، والدينونة بما يستحقون، وكان أعظم ذلك يوم الدين، افتتحت هذه بالأمر بالتقوى المنجية من هول ذلك اليوم فقال: يا أيها الناس أي الذين تقدم أول تلك أنه اقترب لهم حسابهم اتقوا ربكم أي احذروا عقاب المحسن إليكم بأنواع الإحسان بأن تجعلوا بينكم وبينه وقاية الطاعات. الدرر للبقاعي

تناسب خواتيم الأنبياء مع فواتح الحج: خواتيم الأنبياء في الساعة وما يليها من العقاب والثواب (حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (96) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (97)) إلى آخرها (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (101) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ (102)) وفي الحج (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1)) ذكر في آخر سورة الأنبياء أحداث الساعة وفي الحج ينبغي علينا أن نتقي ربنا (إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ)، هناك كلام في الساعة وهنا في الساعة (يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (2)) يعني استكمال لما انتهى به في السورة السابقة وكأنها سورة واحدة.

تناسب بداية الحج مع نهايتها: قال الله تعالى في أولها (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) وقال في آخرها علّمهم كيف يتقون (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)(77) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ....) (78)) هذه التقوى، تكون بالركوع والسجود والمجاهدة حتى ينجوا من عذاب الله الشديد. ثم كرر الطلب في آخر آية (فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (78)). كيف يتقون؟ بهذا التفصيل. بعد أن أمرهم علّمهم كيف يفعلون، هذه مظاهر التقوى. لما قال لهم اتقوا الله يقولون كيف نتقيك؟ فيجيبهم افعلوا كذا وكذا.

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ)

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿1﴾

من أسرارِ بلاغةِ القُرآنِ: أنَّه تعالى جعل الافتتاحَ بـ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ لسورتين في القرآن: إحداهما: سورةُ النساءِ، وهي السُّورةُ الرَّابعةُ مِن النِّصفِ الأوَّلِ مِن القرآنِ، وعلَّل الأمرَ بالتَّقوى فيها بما يدُلُّ على معرفةِ المبدأِ بأنَّه خلق الخَلْقَ من نفْسٍ واحدةٍ، وهذا يدُلُّ على كمالِ قُدرةِ الخالقِ، وكمالِ عِلمِه وحكمتِه. والثانيةُ: سورةُ الحجِّ، وهي الرابعةُ أيضًا مِن النِّصفِ الثَّاني مِن القرآنِ، وعلَّلَ الأمرَ بالتَّقوى فيها بما يدُلُّ على معرفةِ المعادِ، فجعلَ صدْرَ هاتين السورتينِ دليلًا على معرفةِ المبدأِ والمعادِ، وقدَّم السُّورةَ الدالَّةَ على المبدأِ على السُّورةِ الدالَّةِ على المعادِ، وهذا سِرٌّ عظيمٌ.

نخرج من بطون أمهاتنا حفاة عراة إلى هذه الأرض، فتكون هذه الفترة اختبار وتمحيص وأمرنا باصطحاب التقوى خلالها، ثم نعود إلى بطن الأرض، ثم نخرج من بطن الأرض يوم القيامة حفاة عراة، ليس معنا شيء الا تقوى الله، فمن اتقى أفلح وفاز، ومن تمرد فعصى خاب وخسر، إنها قصة قصيرة لها بداية معلومة ونهاية معلومة.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ) أي: يا أيُّها النَّاسُ، اتَّقُوا رَبَّكم الذي خلَقَكم، والذي يرزُقُكم ويدَبِّرُ أمورَكم، بامتِثالِ أوامِرِه، واجتنابِ نواهيه. موسوعة التفسير

فهو رب العالمين، الذي قدر وجودهم، وهو القائم بأمورهم، المربي لجميع خلقه، بصنوف النِعم، المربي لجميع خلقه بالرزق والتدبير والحفظ والعناية، والمربي لأوليائه بإصلاح قلوبهم وتصفية أرواحهم وتهذيب أخلاقهم.

في التَّعبيرِ عن الذَّاتِ العَلِيَّةِ بصِفَةِ الرَّبِّ مُضافًا إلى ضَميرِ المخاطبينَ: إيماءٌ إلى استحقاقِه أنْ يُتَّقى؛ لِعَظمتِه بالخالِقيَّةِ، وإلى جَدارةِ النَّاسِ بأنْ يَتقُّوه؛ لأنَّه بصِفَةِ تَدبيرِ الرُّبوبيَّةِ لا يأمُرُ ولا يَنْهى إلَّا لمراعاةِ مَصالحِ النَّاسِ، ودَرْءِ المفاسِدِ عنهم. الدرر السنية

فلا يأمرنا سبحانه إلا بما فيه مصلحه خالصة أو راجحة، ولا ينهانا إلا عما فيه مفسدة خالصة أو راجحة، أمر بالتوحيد ونهى عن الشرك فحفظ للعبد كرامته أن يكون عبدا لغيره، أمر بالزواج ونهى عن

الزنا فحفظ للعبد نسبه وإنسانيته واحساسه من الجور والمهانة والقهر، أمر بالعمل ونهى عن السرقة فحفظ للناس أموالها ... أحل جميع الطيبات ونهى عن الخبائث المذهبة للعقول ..... وهكذا

(إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ) أي: اتَّقُوا اللهَ؛ لأنَّ أمامَكم أهوالًا عَظيمةً، يَحصُلُ منها رُعبٌ هائِلٌ، وفَزَعٌ كَبيرٌ يومَ القيامةِ، ولا نجاةَ مِن ذلك إلَّا بتَقواهُ سُبحانَه. موسوعة التفسير

الإتيانُ بلفْظِ شَيْءٌ؛ للتَّهويلِ بتوغُّلِه في التَّنكيرِ، وللإيذانِ بأنَّ العُقولَ قاصِرةٌ عنْ إدراكِ كُنْهِها، والعِبارةَ ضَيِّقةٌ لا تُحِيطُ بها إلَّا على وَجْهِ الإبهامِ. الدرر السنية

قال الشنقيطي عن هذه الزلزلة: (معناها: شِدَّةُ الخوفِ والهولِ والفزعِ؛ لأنَّ ذلك يُسمَّى زِلْزالًا، بدليلِ قولِه تعالَى فيما وَقَع بالمسلمينَ يومَ الأحزابِ مِن الخوفِ: (إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا) [الأحزاب: 10- 11]؛ أي: وهو زلزالُ فزعٍ وخوفٍ، لا زلزالُ حركةِ الأرض). ((أضواء البيان))

(اخْتَلَف العلماءُ في وقتِ هذه الزَّلْزَلةِ المذكورةِ هنا، هل هي بعدَ قيامِ النَّاسِ مِن قُبورِهم يومَ نشورِهم إلى عَرَصاتِ القيامةِ، أو هي عِبارَةٌ عن زلزلةِ الأرضِ قبلَ قِيامِ النَّاسِ مِن القُبورِ؟ فقالَتْ جماعَةٌ مِن أهلِ العلمِ: هذه الزَّلزلةُ كائِنةٌ في آخِرِ عُمْرِ الدُّنيا، وأوَّلِ أحوالِ السَّاعةِ، وقالت أخرى بأنَّ الزَّلزلةَ المذكورةَ كائنةٌ يومَ القيامةِ بعدَ البعثِ مِن القبورِ...) والله أعلم.

وعن أبي العالية، قال: أبيّ بن كعب، قال: ستّ آيات قبل يوم القيامة: بينا الناس في أسواقهم، إذ ذهب ضوء الشمس، فبينما هم كذلك، إذ تناثرت النجوم، فبينما هم كذلك، إذ وقعت الجبال على وجه الأرض، فتحرّكت واضطربت واحترقت، وفزعت الجنّ إلى الإنس، والإنس إلى الجنّ، واختلطت الدوابّ والطير والوحش، وماجوا بعضهم في بعض وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ قال: اختلطت (وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ) قال: أهملها أهلها وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ قال: قالت الجنّ للإنس: نحن نأتيكم بالخبر، قال: فانطلقوا إلى البحار، فإذا هي نار تأجج؛ قال: فبينما هم كذلك إذ تصدّعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى، وإلى السماء السابعة العليا، قال: فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الريح فأماتتهم. وهو موقوف على أبي بن كعب رضي الله عنه، وإسناده إليه حسن.

وسواء كانت هذه الزلزلة أخر عمر الدنيا، أو بعد قيام الناس من قبورهم، فالمطلوب من العبد أن يحقق تقوى الله ليقيه الله هذه الأهوال والمخاوف ويؤمنه يوم يخاف الناس.

والخوف من الله تعالى واجب على كل أحد، ولا يبلغ أحد مأمنه من الله إلا بالخوف منه، قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَعِزَّتِي لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ، وَلَا أَجْمَعُ لَهُ أَمْنَيْنِ، إِذَا أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" وحسنه الألباني في "الصحيحة".

قال شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ: "الْخَوْفُ الْمَحْمُودُ مَا حَجَزَكَ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ".

ولا سبيل للخوف المحمود الذي يحمل العبد على طاعة الله وترك معصيته إلا بالعلم، قال ابن القيم رحمه الله:" كلما كان العبد بالله أعلم، كان له أخوف. قال ابن مسعود:" كفى بخشية الله علماً" ونقصان الخوف من الله إنما هو لنقصان معرفة العبد به، فأعرف الناس أخشاهم لله، ومن عرف الله اشتد حياؤه منه وخوفه له وحبه له، وكلما ازداد معرفة ازداد حياءً وخوفاً وحباً ".

وبالجملة فمن استقر في قلبه ذكر الدار الآخرة وجزائها، وذكر المعصية والتوعد عليها، وعدم الوثوق بإتيانه بالتوبة النصوح: هاج في قلبه من الخوف ما لا يملكه ولا يفارقه حتى ينجو.

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ ﴿2﴾

(يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ) أي: يومَ تَرَونَ زلزلةَ السَّاعةِ -أيُّها النَّاسُ- تَشْتغِلُ كُلُّ مُرضِعةٍ حِينَها عمَّن تُرضِعُه، وتَغفُلُ عنه حائِرةً مَدهوشةً، قد اشتدَّ بها الكَربُ؛ مِن هَولِ ما تراهُ. موسوعة التفسير

وقال السعدي: (يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ مع أنَّها مجبولةٌ على شدةِ محبتِها لولدِها، خصوصًا في هذه الحالِ، التي لا يعيشُ إلَّا بها).

(وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا) ي: وتُسقِطُ كُلُّ امرأةٍ حاملٍ جَنينَها الذي في بَطنِها قَبلَ تمامِه؛ لشِدَّةِ الكَربِ والفَزَعِ والهَولِ. موسوعة التفسير

قال السمعاني: (فإن قال قائِلٌ: كيفَ تضَعُ المرأةُ حَمْلَها يومَ القيامةِ؟ الجوابُ: قُلْنا: أمَّا على قَولِنا: إنَّ الزَّلزلةَ قبل قيامِ السَّاعةِ، فمعنى وَضعِ الحَملِ على ظاهِرِه، وإنْ قُلْنا: إنَّ الزَّلزلةَ عند قيامِ السَّاعةِ، فالجوابُ مِن وَجهَينِ: أحدُهما: أنَّ المرادَ مِن الآيةِ النِّساءُ اللَّواتي مِتنَ وهنَّ حَبالى. والوَجهُ الثَّاني -وهو الأصَحُّ: أنَّ هذا على وَجهِ تعظيمِ الأمرِ، وذِكرِ شِدَّةِ الهَولِ، لا على حقيقةِ وَضعِ الحَملِ، والعرَبُ تقولُ: أصابَنا أمرٌ يَشيبُ فيه الوليدُ، وهذا على طَريقِ عِظَمِ الأمرِ وشِدَّتِه، وقد قال الله تعالى: يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا [المزمل: 17]

(وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى) أي: وترى النَّاسَ تَحسَبُهم سُكارى قد دَهِشَت عقولُهم، وغابت أذهانُهم؛ مِن شِدَّةِ الفَزَعِ والكَربِ والهَولِ، ولَيسُوا بسُكارى حقيقةً مِن شُربِ الخَمرِ!. موسوعة التفسير

وقال السعدي: (أي: تحسَبُهم -أيُّها الرَّائي لهم ...).

(وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ) أي: ولكِنَّ الذي أوجَبَ لهم هذه الحالةَ خَوفُهم مِن شِدَّةِ عذابِ اللهِ الذي رأَوْهُ، فأذهَبَ هَولُه عُقولَهم، وأفرَغَ قُلوبَهم، ومَلَأها فَزَعًا ورُعبًا!. موسوعة التفسير

قال السعدي: في قوله الله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ) يخاطِبُ اللهَ النَّاسَ كافَّةً بأن يتَّقوا رَبَّهم الذي ربَّاهم بالنِّعَمِ الظَّاهرةِ والباطنةِ، فحقيقٌ بهم أن يتَّقوه بتركِ الشِّركِ والفُسوقِ والعصيانِ، ويمتَثِلوا أوامِرَه

ما استطاعوا، ثمَّ ذكَر ما يُعينُهم على التقوى، ويحَذِّرُهم مِن تركِها، وهو الإخبارُ بأهوالِ القيامةِ، فقال تعالى: إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ، فحقيقٌ بالعاقِلِ الذي يعرِفُ أنَّ هذا أمامَه أن يُعِدَّ له عُدَّتَه، وألَّا يُلهِيَه الأملُ فيترُكَ العمَلَ، وأن تكونَ تقوَى اللهِ شِعارَه، وخوفُه دِثارَه، ومحبَّةُ اللهِ وذِكرُه رُوحَ أعمالِه.

قال الشنقيطي: فعِظَمُ الهولِ يومَ القيامةِ موجِبٌ واضحٌ لِلاستعدادِ لذلك الهولِ بالعملِ الصَّالحِ في دارِ الدُّنيا قبلَ تَعَذُّرِ الإمكانِ.

فالْيَوْمَ عَمَلٌ وَلا حِسابَ وَغَداً حِسابٌ وَلا عَمَلَ.

اليوم يُقبل منا مثقال ذرة، وغدًا لن يُقبل منا مِلءُ الأرض ذهباً.

دخل عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه المقابرَ فقال: أمَّا المنازل فقد سُكِنَتْ، وأمّا الأموالُ فقد قُسِمَتْ، وأمّا الأزواج فقد نُكِحَتْ، فهذا خبرُ ما عندنا فما خَبر ما عندكم؟ ثم قال: والذي نفسي بيده لو أُذِنَ لهم في الكلام لأخبَرُوا أنّ خيرَ الزّاد التّقوَى.

قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [فاطر: 37].

قال ابن عاشور: الله سبحانه امتنَّ عليهم بنعمة العمر، والإمهال في الدنيا، وكذلك امتنَّ عليهم بإرسال الرسل عليهم السلام يُنذرونهم ويرشدونهم، ومع ذلك لم يَستفيدوا من هذه النعم، ولم يُقدِّروها حقَّ قدرها.

قال تعالى:﴿حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ﴾[المؤمنون: 99].

تمنوا العودة إلى الدنيا ولو للحظات معدودة، ليكونوا صالحين، ليعملوا أي عمل صالح، ليصلحوا ما أفسدوا، ويطيعوا الله عز وجل في كل ما عصوا، ليذكروا الله تعالى ولو مرة، يتمنون النطق ولو بتسبيحة واحدة، ولو بتهليلة واحدة، فلا يؤذن لهم، ولا تُحقق أمنياتهم، نسأل المغفرة والعون على طاعته وحسن الخاتمة.

فغاية أمنية الموتى في قبورهم حياة ساعة، بل دقيقة، يستدركون فيها ما فاتهم من توبة وعمل صالح، أما نحن أهل الدنيا فمفرطون في أوقاتنا؛ بل في حياتنا، نبحث عما يقتل أوقاتنا، لتذهب أعمارنا سدى في غير طاعة، ومنا من يقطعها بالمعاصي، ولا ندري ماذا تخبئ لنا قبورنا من نعيم أو مآس نسأل الله السلامة والعافية.

فلنتق ذلك اليوم العظيم والهول الجسيم، ولنتق ذلك الموقف الذي سنقدم فيه للمسألة والمحاسبة، وسيُوقَف كلّ منا فيه بين يدي الله مُتخلّياً عنه فيه أقربُ قريب وأصدق صديق، كما قال تعالى: (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ) [عبس:34-37].

فلنتق الله بمحاسبة أنفسنا قبل أن نحاسب، "حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَزِنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا، فَإِنَّهُ أَهْوَنُ عَلَيْكُمْ فِي الْحِسَابِ غَدًا، أَنْ تُحَاسِبُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ"، قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " الكَيِّسُ مَن دان نفسَه وعمِل لما بعدَ الموتِ والعاجِزُ مَن أتبَع نفسَه هَواها وتمنَّى على اللهِ الأمانِيَّ ". أخرجه الترمذي

فلنتق يوم الحساب باتّقاء محارم الله والوقوف عند حدوده وامتثال أوامره، فإنه والله بعد ذلك الحساب إمَّا فرحة لا حزن بعدها نعيم أبدي، وإمَّا ترحة لاسرور بعدها عذاب سرمدي.

فبعد الحساب وقراءة الكتاب ينقسم النّاس قسمين:

مسروراً يتلألأ وجهه حبوراً وبهجة، آخذاً كتابه بيمينه، يرفعه لمن حوله قائلاً: (هَاؤُمُ اقْرَأوا كِتَابِيَهْ) [الحاقة: من الآية] أي: هلُّموا تعالوا انظروا حسن نتيجة محاسبتي، ونقاءَ صحيفتي، وما تقرّر في مصيري النّهائي (هَاؤُمُ اقْرَأوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ) [الحاقة:19-24].

وآخَر حزيناً يتحسّر من فشله في المحاسبة ويدعو بالويل والثبور مُتحسِّراً ومتوجِّعاً على عظيم مال وكبير سلطانٍ لم ينفعاه، ويتمنّى أنَّه لم يَرَ صحيفة أعماله، وألاَّ يراها أحد، قوله: (يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ) [الحاقة:25-29].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ ﴿3﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قبلَها: قال الرازي: أنَّ الله تعالى بيَّن أنَّه معَ هذا التحذيرِ الشَّديدِ بذِكرِ زلزلةِ الساعةِ وشدائدِها، فإنَّ مِن الناسِ مَن يجادلُ في الله بغيرِ علمٍ.

وقال ابن حيان: وأيضًا فإنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أهوالَ يومِ القيامةِ؛ ذكَرَ مَن غَفَل عن الجزاءِ في ذلك اليومِ، وكذَّبَ به.

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ) أي: ومِنَ النَّاسِ صِنفٌ يجادِلُ في شأنِ اللهِ وفي دينِه بجَهلٍ، من غيرِ علمٍ صحيحٍ، جدلًا ناشئًا عن سوءِ نظرٍ، وسوءِ تفكيرٍ لإحقاقِ الباطلِ وإبطالِ الحقِّ، فينكرُ وحدانيَّةَ اللهِ وقدرتَه على إحياءِ الموتَى، ويُكذِّبُ ما جاءَتْ به رسلُه. موسوعة التفسير

والجدال: هو قصدُ إفحام الغير، وتعجيزه، وتنقيصه؛ بالقدح في كلامه، ونسبته إلى القصور والجهل فيه؛ أما المراء: فهو طعن في كلام الغير؛ لإظهار خلل فيه، من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير.

قال ابن كثير: هذا حالُ أهلِ الضَّلالِ والبِدَعِ؛ المعرِضينَ عن الحَقِّ، المتَّبِعينَ للباطِلِ، يَترُكونَ ما أنزَلَه اللهُ على رَسولِه مِنَ الحَقِّ المبينِ، ويتَّبِعونَ أقوالَ رُؤوسِ الضَّلالةِ؛ الدُّعاةِ إلى البِدَعِ بالأهواءِ والآراءِ.

وقد يكون المراء والجدال بسبب حب الانتصار والانتقام من الآخرين؛ حسدًا وحقدًا عليهم، على وجه الغلبة والخصومة والانتصار للنفس ونحو ذلك هو مذموم منهي عنه.

ويقول الأوزاعي -رحمه الله-: "إذا أراد الله بقومٍ شرًّا ألزمهم الجدلَ، ومنعهم العمل"، وقال معروف الكَرْخيُّ -رحمه الله-: "إذا أراد الله بعبد شرًّا، أغلق عنه باب العمل، وفتح عليه باب الجَدَل".

قال الحسن البصري -رحمه الله- حيث قال: "المؤمن لا يداري ولا يماري، ينشر حكمة الله، فإن قبلت حمد الله، وإن ردت حمد الله -عز وجل وعلا- وبعد هذا فأكره الجدال والمراء".

(وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ) أي: ويتَّبِعُ الجاهِلُ في جِدالِه في اللهِ بلا عِلمٍ كُلَّ شَيطانٍ عاتٍ طاغٍ مِن شياطينِ الإنسِ والجِنِّ، مُتجَرِّدٍ مِنَ الخيرِ، مُتمَرِّدٍ على اللهِ، فيَقبَلُ وَسوَسَته، وينقادُ للعَمَلِ بها بلا تَفكيرٍ ولا تَرَدُّدٍ. موسوعة التفسير

❁مَرِيدٍ: أي: مُتَمَرِّدٍ خارجٍ عن الطَّاعةِ، مُتجرِّدٍ للفَسادِ.

﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ ﴿4﴾

(كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ) أي: قضَى اللهُ على الشَّيطانِ المتَمَرِّدِ وقدَّر أنَّ مَنِ اتَّخَذه وليًّا فأقبَلَ عليه واتَّبَعَه؛ فإنَّ الشَّيطانَ يُضِلُّه في الدُّنيا عن الحَقِّ، ويَدُلُّه إلى طريقِ النَّارِ الموقَدةِ ويَدْعوه إليها، فيَسوقُه إلى عَذابِها بما يُزَيِّنُه له مِنَ الباطِلِ. موسوعة التفسير

قال ابن القيم: الكِتابةُ في هذه الآيةِ هي كِتابةٌ كَونيَّةٌ، ويُقابِلُها الكِتابةُ الشَّرعيَّةُ الأَمريَّةِ؛ كقَولِه تعالى: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ البقرة: 183، فالأُولى كِتابةٌ بمعنى القَدَرِ، والثَّانيةُ كِتابةٌ بمَعنى الأَمْرِ.

فالشيطان: هو العدوّ اللدُود للإنسان، فلا بد للمسلم أن يتذكّر هذه العداوة، وأن يجعلها نصب عينه، أن لا ينسى أبدًا أن هناك قَرِينًا من الشيطان مُلازِمًا له لا يفارقه، يتربّص به من يوم ولادته إلى يوم فراقه للحياة، يحاول هذا العدو هذا القَرِين إضلاله وإبعاده عن سبيل الله، وقد توعّد وأقسم بعزّة الله على إضلال بني آدم: (قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ) [الأعراف: 16].

ولله الحكمة البالغة في ذلك، فقد سلّطه الله على عباده ابتلاءً وامتحانًا، ليعلم من يطيع الشيطان فيخيب ويخسر، ومن يطيع الرحمن فيصيب ويظفر.

والشيطان يستطيع أن يصل إلى فكر الإنسان وقلبه بطريقة لا ندركها ولا نعرفها، ويساعده على ذلك طبيعته التي خُلِق عليها، وقد ثبت في صحيح البخاري أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- قال: " إنَّ الشَّيطانَ يَجري مِن ابنِ آدمَ مَجرى الدَّمِ "، فهذه هي الوسوسة إذ سماه الله تعالى ب (الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ

الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ)، قال ابن كثير: "الوَسْوَاسِ الخَنَّاسِ أي: أن الشيطان جاثِم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، فإذا ذَكَر الله خَنَس".

فهكذا الشيطان، يستغِلّ ضعف الإنسان، فإنّ للإنسان نقاط ضعف كثيرة، وهي في الحقيقة أمراض تقع في قلبه، فتصبح مدخلاً من مداخل الشيطان، ومن هذه الأمراض: الغضب والشهوة والكِبْر والعُجْب والغرور والحسد والعَجَلة والجهل والغفلة والكذب والظلم والطغيان والحزن والفرح وحبّ المال والافتتان بالدنيا والنساء وغيرها، وكلّ هذه منافذ يدخل منها الشيطان للوسوسة.

وإن للشيطان له هدفين: هدفًا بعيدًا وهدفًا قريبًا، أما الهدف البعيد فهو إدخال العباد إلى النار معه، وقد توعَّدَ بذلك، وأما الهدف القريب فهو إيقاع العباد في الشرك والكفر، وإيقاعهم في الذنوب والمعاصي.

وهناك مكائد ومصايد يصطاد بها الإنسان، كما أن له أساليب عديدة لإضلاله، فالشيطان لا يأتي إلى الإنسان ويقول له: اترك هذه الأمور الخيّرة، ولا يأتي إلى الإنسان ويقول له: اترك الصلاة أو اكفر بالله، فلو فعل ذلك فلن يطيعه أحد، ولكن يأتيه بأساليب ذكية ومختلفة، ويتدرّج معه بخطوات متعاقبة ومتتالية، ولو تطلّب ذلك وقتًا طويلاً وزمانًا بعيدًا.

قال ابن القيم: دَافع الخَطرة؛ فإن لم تفعل، صارت فكرة، فدافع الفكرة؛ فإن لم تفعل، صارت شهوة، فحاربها، فإن لم تفعل، صارت عزيمة وهمة ، فإن لم تدفعها ،صارت فعلاً، فإن لم تتداركه بضده ،صار عادة ،فيصعب عليك الانتقال عنها .

ومن أساليبه الخبيثة أنه يأتي ويُظهِرُ النُصحَ للإنسان، فالشيطان يدعو المرءَ إلى المعصية، يزعم أنه ينصح له، ويريد له الخير، وقد أقسم لأبينا آدم أنه ناصِحٌ له، كما أخبر تعالى: (وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ) [الأعراف: 21].

❁وقصة برصيص العابد أكبر شاهد، فهذه القصة ذكرها ابن الجوزي في كتابه تلبيس إبليس، وهي قصة يرويها المفسرون عند قوله تعالى: (كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ) [الحشر: 16].

فهكذا الشيطان فمن أساليبه أنه يتدرّج خطوة بعد خطوة، لا يكَلّ ولا يَمَلّ، فالشيطان إذا أراد من مسلم ترك الصلاة لا يأتيه ويوسوس له ويقول له: اتركها مباشرة، وإنما يسلك معه أسلوب التدرج خطوة بخطوة، يأمره بتأخيرها عن وقتها، ما زال الوقت، فيلهيه وينسيه، ثم ينشغل بأمور أخرى، فيصبح يتهاون فيها، وهكذا فبعد أيام أو أشهر يملّ الإنسان ويضعف، ويترك الصلاة وهكذا.

ومن أساليبه كذلك تزيين الباطل، وهذا هو السبيل الذي كان الشيطان ولا يزال يسلكه لإضلال العباد، فهو يُظهِر الباطلَ في سورة الحق، ويُظهِر الحقَّ في صورة الباطل، ولا يزال بالإنسان حتى يُحسّن له الحرام، ويزيّن له فعله، قال الله تعالى: (وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) [النمل: 24]، الشيطان يزيّن

الحرامَ، ويزيّن المعاصي، مثلاً يعد المقامِر والمرابِي والسارق وآخذ الرشوة بالربح السريع والكثير، والزاني والفاجر باللذة العاجلة، ويعد الظالم بالعزّة والنصر، قال تعالى: (يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا) [النساء: 120]، فلا تطيعي الشيطان وتعصي الرحمن، الحلال بين والحرام بين.

برغم ما لهذا العدو اللدود من المكائد الخطيرة والأساليب الكثيرة لإضلال الإنسان إلا أن كيدَه ضعيف، فقال -جلّ وعلا-: (فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا) [النساء:76]، فكيد الشيطان ضعيف لمن آمن بالله وأطاعه، واتبع صراطه المستقيم، ولازم التوبة والاستغفار بعد كل زلّة وخطيئة، ففي الحديث الصحيح من رواية أحمد والحاكم: " إن الشيطانَ قال: وعزّتِكَ يا ربِّ، لا أَبرَحُ أُغوي عِبادَكَ ما دامتْ أَرْواحُهم في أَجْسادِهم، قال الرَّبُّ: وعزَّتي وجَلالي، لا أَزالُ أَغفِرُ لهم ما استَغْفَروني"، وقال تعالى: (إِنَّ الذِينَ اتقوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مّنَ الشيطان تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ) [الأعراف: 201].

وقد أرشدنا الله إلى ما يعصمنا من مكائد الشيطان ووساوسه، ومن أهم ذلك توحيد الله والتوكّل عليه والانقطاع إليه وإخلاص كل العبادات له، قال تعالى: (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءامَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) [النحل:99]، والتعوّذ بالله من شرّه: (وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاْستَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ) [فصلت:36]، وتلاوة القرآن وسماعه، فالقرآن له خاصّية في طرده، وكلّما أكثر العبد من التلاوة حصّن نفسه من الشيطان الرجيم، مداومة ذكر الله بالتسبيح والتحميد والتكبير والتهليل والاستغفار والدعاء، والعلم الشرعي أخطر على الشيطان من أي عبادة ، وفي الحديث الصحيح: فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم، لأن العلم هو الذي يعلمنا جميع ما سبق ويثبتنا على الطريق المستقيم، فلا غرابة أن يعوق الشيطان العبد عن طلب العلم لأنه يقطع عليه كل طريق فلا يقدر أن يصل للعبد فيخسأ ويخيب.

نعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ، مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَذَرَأَ وَبَرَأَ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَنْزِلُ مِنْ السَّمَاءِ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَعْرُجُ فِيهَا، وَمِنْ شَرِّ مَا ذَرَأَ فِي الْأَرْضِ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمِنْ شَرِّ فِتَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ طَارِقٍ إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَا رَحْمَنُ.